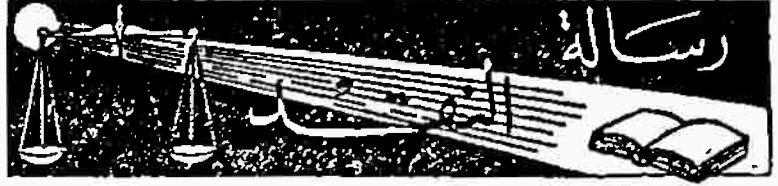


أقول إننا نعانى نخمة في الشعر وأزمة في الشهور ... إن نظرة واحدة إلى ما تخرجه المطبعة من دواوين الشعر في هذه الأيام ، تنتهي بك إلى الإيمان بهذا الحكم ؛ الإيمان به كحقيقة ملموسة ، ونظرة فيها التدقيق والتمعن تسلك



أين المفر

تأليف الأستاذ محمود حسن إسماعيل

بقلم الأستاذ أنور المعداوي



إلى حقيقة أخرى هي أنك لو رحت تبحث وسط هذه النخمة الشعرية عن آثار أدبية ترضى الفن حين تحفل بصدق الشهور ، لما وجدت غير ثلاثة دواوين هي « أين المفر » لمحمود حسن إسماعيل و « طفولة نهر » لثزار قباني و « الشروق » لحسن كامل الصيرفي ؛ ونظرة فيها التأمل والنفاذ تعلمك بأن أزمة الشهور عند الكثرة الغالبة من شعرائنا مرجعها إلى أن التجربة النفسية قد تمر بهم فكأنما تمر بفراغ موحش لاتاقى فيه إلا مجموعة حواس ممطلة ، لا تستجيب لأحداث النفس والحياة .

أترك هذا لأسجل ظاهرة تلفت الحس الفني عند قارئ هذا الديوان ، أقصد القارئ التدقيق لا القارئ المجلان ... وهي ظاهرة تتركز في الحركة النفسية التي تشيع في الكثير الغالب من قصائده ؛ هذه الحركة النفسية هي « المرصد » الذي يتلقى « الهزات » الشعرية من هنا وهناك ثم « يسجلها » في بيت من الشعر أو أبيات ... هذه الهزات متفرقة ثم متجمعة تنصهر في بوتقة الوجدان النابض لتضع بين يدي الناقد نموذجاً كاملاً للشاعر الإنساني ...

محمود حسن إسماعيل في « أين المفر » مثال صادق لهذا الشاعر ، ولست أجد في وصف فنه خيراً من تلك الكلمات التي قلتها من قبل عن الفن الإنساني ، وهو أن يكون الفن انعكاساً صادقاً من الحياة على الشهور ، وأن يكون الشهور مرآة تلتقي على صفحتها النفس الإنسانية في صورها الخالدة بكل ما فيها من اشتجار الأهواء والنزعات ... هنا تتحقق المشاركة الوجدانية التي تتمثل في ذلك التجارب الروحي بين الفن وصاحبه ، وبين الفن ومتذوقه ، وبين الفن والإنسانية بكل ما فيها من اختلاف الصور والألوان .

الشاعر الإنساني هنا يقف من وراء هذه الأبيات ، وإن شئت فقل من وراء هذه الأنات ... في « أغاني الرق » :
أقيني بين شباك المذاب وقلت لي فن

شاعر ... كلمة أقولها بكل ما يحويه مدلولها من معان يدخل فيها الطبع ، والوهبة ، وسمة الأفق ، وقدرة الجناحين على التحليق ؛ أقولها أنا عن صاحب هذا الديوان حين يطلقها غيري على كل ناظم ، وكل ناكت ، وكل مصنوع .
قرأت له أكثر ما قال من شعر إن لم يكن كل ما قال ، وفي هذه الفترة الطويلة بين إنتاجه الأول وإنتاجه الأخير لم يتغير رأبي فيه . . لقد ظل على مستواه من الشعرية التي صقلها الطبع وشحذها التأمل ، وغذاها الخيال . ونحن حين نقرر هذا كله ، نقرره بميزان الوعي الفني ؛ الوعي الذي تعينه مقاييس الذوق والفن على تحديد الأوضاع والقيم .

ولابد من وقفة قصيرة عند تلك الكلمة التي قدم بها الشاعر لديوانه ، وعرض فيها للشعر العربي الحديث في شتى فنونه وألوانه وكيف تمددت هذه الفنون والألوان على أيدي أصحابها من الناظمين والشعراء .

وكيف تبانيت مصائرهما تبعاً لما ينال المادان الشعرية من زيف في الفن أو أمالة ؛ وقفة قصيرة لأقول للشاعر إنني كنت أود ألا تظهر تلك الكلمة كقدمة لديوانه ، حتى لا يتهمه النقاد بأنه ، ما كتبها إلا تركية لشعره وانتصافاً لنفسه ... على الأستاذ محمود حسن إسماعيل أن يقدم لنا شعره لنحكم له أو عليه ، ولا يحق له بعد ذلك أن يقيم الميزان لنفسه ولغيره في الوقت الذي يقدم فيه إلى النقاد عملاً من أعماله الفنية !

هذه لفظة أسجلها قبل أن أمضي في عرض شعره ، وقبل أن

ووقفت أحفر للجراح طريقها ... فتمسود شدوا !
ونقلة أخرى تقف بنا عند ظاهرة أخرى لا تقل عن الأولى
استثنائاً بأهتاف الناقد ولا إثارة للكنه الناقدة ، ونمنى بها ظاهرة
الرمزية في شعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل ... هذه الرمزية هي
التي تدفع بعض الناس إلى وصف شعره بغموض العبارة حيناً
وجوح الخيال حيناً آخر ؛ والحقيقة التي نقررها أنه لا غموض
هناك ولا جوح ، وإنما هو عجز المجال عن التحقيق في أفق
الشاعر ، وقصور إحساسهم عن التجاوب والجو النفسى الذى
عاش فيه ، ذلك لأن الرمزية هنا تأتى مطبوعة لا مصنوعة ،
وأصيلة لا مقصودة ... الرمزية المطبوعة هي أن يبرر الفنان من
طريق المعنويات ، أما الرمزية المصنوعة فهي التعبير عن الماديات
بما وراء المعنويات ، وفي هذا اللون الأخير من الرمزية يكون
السخر والدجل والتضليل !

الرمزية في شعر هذا الشاعر تصدر عن منبئين أصليين :
التأمل العميق المنعكس من الحياة على النفس وهو ما يعبر عنه
بـ « الاستبطان النفسى » ، وهذا هو النوع الأول . أما النوع
الثانى فهو « الفيض الشعورى » النبعث من قوة الشخصية
الشعرية أو راحة الحقل الشعري ؛ ومن هنا تطفئ التهورعات
الروحية التي تصبغ الشعر بصبغة الرمزية الأصيلة لا الرمزية
المشكفة ، تلك التي لا تهدف إلا إلى الغموض والإيهام ! استمع
له يقول في « العزلة » :

صلت بها عيدان لا تعرف الأديان
واستغفرت أغصان لكن بلا ذنب
نخيلها حراف وتبعها ظلمات
وصمتها ولهاث شوقاً إلى الغيب
تفجرت أنهار فيها من الأسرار
يجرى بها إعصار في عالى الرحب
وهذه أنفاس في صمتها الوسواس
تدق كالأجراس في معبد القلب
وهذه حيات تسمى من الساعات
كأنما الأوقات غاب عنها قربى
هنا لون من الرمزية لا يمجرك فهم صراميه حين تلقاه بشيء

وكل ما يشجى حين الرباب ضيعة مـ
وهذا جناحى صارخ لا يحاب في ظلمة السجن
ونشوق صارت بقايا مراب في حانة الجن
أواه يا فنى

للم أعش كالناس فوق التراب !

جملت زادى من عويل الرياح وغربة الطير
ومن أسى الليل ووجد الصباح وشهقة النهر
وسقتنى ظمآن بين البطاح إلا من السحر
وقلت لى رفرف بهذا الجناح واشرب من السر
والسرى صدري

قيدت ساقيه بترك الجراح !

هذه كلمات شاعر ينظر إلى الحياة من خلال « عدسة »
فكرية مكبرة ، تكشف الطريق إلى كل خفى من شهاب
النفس ، وكل تمريرة في منطف الشعور هي كلمات فنان وإن
شئت قتل كلمات إنسان ؛ واستمع مرة أخرى لخفقة من خفقات
القلب الإنسانى ، في لحظة من تلك اللحظات التي تمر لكل
نفس ألهمتها سياط العذاب ، وألهمتها فلسفة الحرمان ... هناك
في « مقابر السحر » :

وهنا بالنفس ما يهتسو بنفسى في يد الإعصار يعول
ثم قالت كيف عن دمي ومنك الدمع يا حيران نسال ؟
إن أكن فيك سكنت الجسم والجسم تراب يتنقل
فأنا طير بعرش الله لى عش ، وبستان ، وجدول
إنما أبكى لهذا الفقص الداجى الكئيب التملل
لم يجد أى عزاء في وجودى ... كيف يفتدو حين أرحل ؟!
ولما طال الحير بشاعر الإنسانية ، آمنت دموعه وكفر
جفنه ، ومن التقاء الكفر بالإيمان انبثت الهتاف المتعاقب ، وانطلقت
الفرقة المحرقة ، في طريقهما إلى الله .. هناك في « التراب الحائر »
رباه ! ما أنا ؟ ... هل وجدت على زمان الناس سهواً !
سويتنى روحاً تمرد ، لا يطيق الأرض مثوى
وأنا التراب ! فكيف صرت هوى وتعذيباً وشجواً !
شرقات غيبك لا يتعن لغير من يبكى دنوا
وأنا إليك ذرفت أبهى فزاد دى عتوا

هي فجوات قليلة ولكنها تتركز سالك الطريق على كل حال ؛
يجدها في غلبة اللغات الذهنية حين نأخذ الومضات الروحية ..
هناك في « اللحن المتهور » :

ليكني كنت رياحا تهتف الآباد منها
أنا أهواها ولكن رغم أنني لم أكنها

أنظر إلى هذا التعبير الفكري في قوله « رغم أنني » ...
لا تشعر هنا بشئ من المبهوط في الإحساس بالجو الشمري ؟ !
إن هذا التعبير في رأيي يصلح لقالة من المقالات لا لبيت
من الأبيات

واستمع له مرة أخرى حين يقول في « أفاني الرق » :
يا سارق القوت نزع الحجاب عن هذه الأقامة
ما كنت أدري فتكها بالرقاب أو أنها نعمة
والجوع إن صاح بصيح الخراب وتصفق الأمة
ألا توافقني على أن أفنى الخيال في البيتين الأول والثاني أفنى
شاعر ، وأنه في البيت الثالث أفنى نأثر ؟ ...

وأن القالب الشمري في قوله : « وتصفق الأمة » تصبغه
صبغة الخطب النبوية أكثر مما تصبغه صبغة التهويمات الروحية ؟
واستمع له مرة ثالثة حين يهتف في « الرداء الأبيض » :
عشت فيك الحزن والسواد وسمرة الخدين والحدادا
وجد ولا تحت الدجى تنادى يا ساقى الحب أغث لي وجدى
وهنا أيضاً بصدمك هذا التعبير « أغث لي وجدى » ...
إنه هتاف ينبعث من قريحة اعترافها الممود بمد وهج التوقد
وحراة الانفعال

وتأمل في هذه الصورة الوصفية لوقدة القيط ولفح الحجر :
والسنة بيض لحن رطانة بمثل لغاها كاهن لم يتمم
كأن عقارب الظهيرة طنبوا خياما على هذا البساط المخرم
إن الصورة هنا تبلغ القمة وتصل إلى مدى الأبداع ، ولكن
كلمة « عقارب » قد أفسدت ألوانها الزاهية

هذه الآخذ التي تنتشر في مواضع قليلة من « ابن المفر » ،
لا يمكن أن يخلو منها أثر من الآثار الفنية ...
وأعود فأقرر أن هذا الديوان يثب بالشعر العربي الحديث
وثبات قل أن نجد لها مثيلا في ديوان آخر .

أنور المعداوي

من الروية وإيمان الفكر ... كل ما في العزلة من خلجات النفس
وخفقات القلب وهزات الشهور ، تلك الانعكاسات المادية الحسية
قد عبر عنها في هذه الأبيات بأشياء معنوية ؛ « فالعبدان المصلية »
بلا دين ، و « الأغصان المستنفرة » بلا ذنب ، و « الأنهار
المتفجرة » من الأسرار ، و « الأنفاس الصامتة » التي تدق كالجواس
في معبد القلب ، و « الحيات الساعية » من الساعات ، كل هذه
المعنويات التي تنبع من العقل الباطن يمكنك أن ترددها إلى وقع
العزلة على العقل الواعي ؛ ذلك الميزان الشمورى الذي يسجل
ما في الوحدة من مظاهر الرهبة والصمت ، والرغبة في اختراق
حجب الغيب ، وبطء النقلة في خطوات الزمن ، وامتلأه
الجو بالأسرار ، واستجابة الوجدان لدعاء مجهول يوحى
بالتمهد والصلاة ...

وبمثل هذا التطبيق ينجاب ذلك الغموض الذي يطالعك في
بعض قصائد الأستاذ محمود حسن إسماعيل حين نلقاه هنا أو تلقاه
هناك .. في « عرفت السر » و « نهر النسيان » و « الخريف »
و « جلاد الظلال » هاتان ظاهرتان أو ناحيتان ؛ ويبقى أن نسجل
ناحية أخرى لها وزنها عند الكلام عن الفن التصويري في الصياغة
الشمرية ، هذه الناحية تتمثل في الربط بين أجزاء الصورة الوصفية
تتمثل في الربط الشمورى كما تتمثل في الربط التعبيري ... ومن
اتصال هذا بذلك ، ومن التوفيق في اختيار الزوايا وتحديد النسب
تتكتمل الوحدة الفنية التي تخلق من الصورة الكاملة لوحة نابضة
تناسق فيها الجزئيات في نطاق الدركات الحسية والنفسية ...
هذه الظاهرة تستطيع أن تلمسها في « الشك » و « نشيد الأغلال »
و « خمر الزوال » و « العبد المرجوم » و « الانتظار » ، وتعال
نستمع له وهو يصف لحظة من لحظاته :

انتظر هنا ... وطال انتظارى وهى في أعينى التفات وذعر
وسؤال لكل شئ حوالى وإيماء لكل طيف يمر
وانتباء ، وغفلة ، وربيع ، وخريف ، وشيب زهر وعطر
وجناح يهفو ، وآخر يهتاج ومن بين ما يرقن طير
وأنا سبب توهج منه لخطاها أيك رطيب وزهر
وهى لا أقبلت ولا عاد منها لشقائى بعودة الكأس خر
هذا هو الشاعر الإنسانى ، وشاعر الرمزية المطبوعة ، وشاعر
الصورة الوصفية الكاملة ، فاهى الفجوات الشمرية التي يتنثر
فيها الناقد ولا يستطيع المضى في طريقه دون أن يشير إليها ؟ .